تاريخ جحـــا . . .

للأستاذ كامل كيلانى

١ — خرافة ومحواله :

منذ خمسة عشر قرناً ، تنقص بضعة عقود — أعنى تنقص عشرات قليلة من السنين — ولد « خرافة » ذلكم القاص العربى المخضرم البارع ، الذى عاش فى العصرين : الجاهلى والإسلامى .

وقد عاصر «خرافة» — فيمن عاصر — جحوان الصحابى : جد « أبى الفصن عبد الله دجين بن ثابت » الملقب بجحا : شيخ الفكاهة الشرقية الباسمة الساخرة ، ورمز الدعابة الفلسفية المرحة الساخرة .

وقد كان « خرافة » — فيما يقول عارفوه — طرافاً وصافاً ، بارع المقال ، رائع الخيال ، يروى للناس عجائب من أخبار العفاريت والجن وطرائفهم وملحهم ، ويقص عليهم من ذلكم غرائب معجبة يزعم لمعاصريه أنها حدثت له .

٢ — حديث خرافة :

كان « خرافة » فيما يقول المفضل الضبى فى أمثاله — معاصراً للنبى ، وقد حدثه ببعض أحاديثه فأعجب بها ، كان يحدث الناس أحاديث طريفة شائقة ، منها الحديث التالى :

خرج « خرافة » — ذات ليلة — فلقى ثلاثة من الجن فسبوه (أى : أسروه) فقال أحدهم : « نعفو عنه » وقال الثانى : « نقتله » ، وقال الثالث : نستعبده (أى : نجعله عبداً لنا) . »

فبينما هم يتشاورون — فى أمره — إذ ورد عليهم رجل ، فقال « السلام عليكم » فقالوا « وعليك السلام » قال « وما أنتم ؟ » قالوا : « نفر (أى : جماعة) من الجن أسرنا هذا الرجل ، فنحن نأتمر فى أمره »

فقال : « إن حدثتكم حديثاً عجيباً أتشركوننى فيه ؟ » قالوا : « نعم » قال :

« إنى كنت ذا نعمة ، فزالت وركبنى دين ، فخرجت هارباً ، فأصابنى عطش شديد ، فسرت إلى بئر ، فنزلت لأشرب ، فصاح بى صائح من البئر ، فخرجت منها ولم أشرب .

فغلبنى العطش فعدت ، فصاح بى ، ثم عدت الثالثة فشربت ولم ألتفت إليه فقال : اللهم إن كان رجلا فحوله امرأة ، وإن كانت امرأة فحولها رجلا . »

فإذا أنا امرأة .

فأتيت مدينة فتزوجنى رجل ، فولدت منه ولدين ، ثم عدت إلى بلدى فمررت بالبئر التى شربت منها ، فصاح بى — كما صاح فى الأول — فشربت ولم ألتفت إليه . فدعا — كالأول فعدت رجلا كما كنت .

ثم عدت إلى بلدى فتزوجت امرأة فولدت منها ولدين .

فلى اثنان من ظهرى واثنان من بطنى .

فقالوا له : « إن هذا لعجيب ، أنت شريكنا . »

* * *

فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم ثور يطير (أى : يسرع فى سيره) ، فلما جاوزهم ، إذا رجل — بيده خشبة — وهو يحفز فى أثره (أى : يجرى خلفه) ، فوقف وسلم ، فردوا عليه مثل ردهم على صاحبهم .

أن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم : « ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً » :

بذلك البيان الذى ورد فى هذا البحث يقتنع كل منصف بأن العقوبات التى قدرها الشارع فى الحدود قد دعت إليها الحكمة واقتضتها مصلحة الأفراد وسعادة الجماعات وسلامة الأمم ، وبهذه الأحكام التى بينا لك وجوه المصلحة والنفع فيها تجلت لك حكمة الشرع الإسلامى فيما شرعه من الحدود ، ووضح لك أنها — دون سواها — هى التى تتقرر بها المصالح وتندفع بها الآثام والمفاسد . وبذلك ثبت كمال هذه الشريعة وسموها وعدالة أحكامها ، وأنها بما قامت عليه من أصول وقواعد ، وبما تنذى به من الأحكام الاجتهادية — صالحة على الدوام لكل أمة فى أى عصر ، تفى بحاجتها ومطالبها وتساير ما يطرأ عليها من مختلف التطور والأحوال .

حسن أحمد الخطيب

راجع القياس فى الشرع الاسلامى لابن تيمية وابن القيم ص ١٥٠ من الطبعة السلفية

فقال : إن حدثتكم بحديث أعجب من هذا أتشركونني فيه ؟ »

قالوا : « نعم »

قال : « كان لي عم ، وكان موسراً ، وكانت له ابنة جميلة ، وكنا سبعة إخوة . وكان لعمي عجل يربيه ، فانفلت .

فقال : « أيكم يرده لي ، فابنتي له . »

فأخذت خشبتي هذه وانزرت ثم حفزت في أثره — وأنا غلام — فلا أنا ألحقه ، ولا هو يكل . »

فقالوا : إن هذا لعجيب . فأنت شريكنا »

* * *

فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم رجل على فرس أنثى ، وخلفه غلام على فرس ذكر . فسلم — كما سلم صاحباه — فردوا عليه كردهم على صاحبيه . فسألهم فأخبروه الخبر .

فقال : إن حدثتكم بحديث أغرب من هذا أتشركونني فيه ؟ » فقالوا : « نعم » وهنا تحدثنا الأسطورة أن الرجل أخبرهم أن الفرس الأنثى هو أمة ، وأن الفرس الآخر هو عبد من الأشرار ، وأنهما ائتمرا به ليسحراه ، فيصفو لهما الجو .

ثم قال للفرس الأنثى التي تحته : « أكذلك ؟ »

فقالت — برأسها — « نعم » .

وأشار إلى الفرس الذكر الذي تحت غلامه : « أهكذا »

فقال — برأسه — : « نعم »

قال : « فوجهت بغلامي هذا الراكب — ذات يوم — في بعض حاجاتي ، فحبسته أمي عندها . فأغفى . فرأى في منامه كأنها صاحت صيحة ، فإذا هي بجرذ قد خرج .

فقالت : « إسجد » فسجد

ثم قالت : « إكرب (أي : اقلب الأرض للحرث) . » فكرب .

ثم قالت : « إدرس » فدرس .

ثم دعت برحى فطحنت قدح سويق — (والسويق كما تعلمون : هو الناعم من دقيق الحنطة والشعير) . فأتت به الغلام ، وقالت له : ائت به مولاك فأتاني به .

فاحتلت عليهما حتى سقيتهما القدح ، فإذا هي فرس أنثى ، وإذا هو فرس ذكر قال « أكذلك ؟ »

قالت الفرس الأنثى — برأسها — : « نعم »

وقال الفرس الذكر — برأسه — : « نعم »

فقالوا : « إن هذا أعجب شيء سمعناه ، أنت شريكنا . »

فأجمع رأيهم فاعتقوا « خرافة » .

٣ — بعد صوت خرافة :

وهكذا أصبح كل حديث طريف تسترعي الأسماع غرابته ، وتبهج النفوس براعته ، ينسب إلى « خرافة » حتى يومنا هذا ، وأصبحت كلمة « خرافة » مرادفة لكل حديث خيالي لا حقيقة له . وكاد ينسى الناس أن « خرافة » علم على شخص بعينه ، عرف الناس وعرفوه ، وألفهم وألفوه .

* * *

ثم مضى القرن الأول ، ومضى معه « خرافة » ومعاصروه ، وانطوى بانطوائه بارع حدث (أي : حسن الحديث) ، لم تبق لنا — من روائعه المستفيضة — إلا سطور ، كأنما بقيت على الدهر ، وغالبت أحداثه ، لتشعرنا بعقد ارماني به تاريخ القصص العربي من خسارة ، بفقدان أمثال هذه الكنوز الفكرية التي لا تعوض .

٤ — جحا العربي :

ثم جاء القرن الثاني ، ومعه هدية من أنفس الهدايا الفنية التي يعتز بها عالم الفكاهة والمرح ، فكان من مولديه شيخ السخرية العربية ، وإمام الفكاهة الشرقية : « أبو الغصن عبد الله دجين بن ثابت » الملقب بجحا .

وقد نشأ السيد جحا في « الكوفة » ورأى — فيمن رآه — من أفذاذ معاصريه « أبا مسلم الخراساني »

وكانت أم « جحا » تخدم أم سليم بنت ملحان : والدة مالك بن أنس : راوية الحديث المعروف .

* * *

وقد لقي السيد جحا من التقدير والإعجاب في القرن الثاني من الهجرة مثل ما لقي سابقه « خرافة » من قبل . ولم يقل شأنه عن صاحبه : تقديراً وإعجاباً ، ونباهة ذكر ، وبعد صيت .

وأعجب الناس بأسلوبه السهل الممتنع في فهم الحياة كما أعجبوا

بما سموا به من طرائف وملح .

واشتد به إعجابهم فخلعوا لقبه كما خلعوا لقب سابقه « خرافة » من قبل — على كل عجيب من القول وطريف من الحديث .

وأصبح للقصص الجحوى خصائصه وميزاته ، كما أصبح للقصص الخرافى من قبله — بدائعه وخيالاته .

٥ — الفن الجحوى :

واشتد إعجاب بعض الناس به فأطلقه على ولده ، وافتن آخرون فأضافوا إلى طرائفه كثيراً من مخترعاتهم وفنون مبتدعاتهم ، وهكذا صنعوا بألف ليلة التى أضافوا إليها جمهرة من طرائفه كما أضافوا إليه جمهرة من قصصها ، حتى تعذر التمييز بين الأصول الجحوية ، والمحاكاة الروية . ولا سيما بعد أن اختلطت بفكاهات « أبى العيناء » و « الشمى » و « أبى دلامة » و « أشعب » و « الفاضرى » و « أبى العنبس » و « البهلول » و « الجاز » و « الحدونى » ومن إليهم من أعلام الدعابة العربية ، ثم زاد عليها المتزيدون جمهرة من فكاهات الحمقى والمغفلين والطفيليين من أمثال « هبنقة » (١) و « فند » (٢) وطفيل (٣) وأضرابهم .

فتجمعت أشتاتهم فى واحد إلا يكنهم أمـــة فيكاد

* * *

وهكذا أسند الناس إلى جحا كل طريف من الملح وعجيب ، فكاد يصبح — كما أصبح خرافة — علماً على فن بعينه من فنون القول بعد أن كان علماً على شخص بعينه من أفذاذ الناس .

٦ — جحا التركى :

فلما جاء القرن الثامن الهجرى حمل معه — فيمن حمل — علماً آخر من أعلام الفكاهة الشرقية وإماماً من أئمة الدعابة التركية هو « الأستاذ نصر الدين »

ولد فى إحدى بلاد الأناضول ، وكانت « سيورى حيصار » مسقط رأسه . ومات فى « آق شهر » ومعناها : البلد الأبيض .

وقد عاش فى عهد السلطان « أورخان » وعمر — فيما يقولون — ستين عاماً أو قريباً .

٧ — الباطشار :

ولقى « نصر الدين » — فيمن لقى — الباطش السفاح « تيمورلنك » كما لقى « أبو النصن جحا » — فى عصره — الباطش السفاح : « أبا مسلم الخرسانى »

وهكذا عاش كلاهما فى عصر مضطرب ، وعاصر كلاهما — فيمن عاصر — قائداً سفاكاً ، متعطشاً للدماء ، باطشاً بالأقوياء والضعفاء .

٨ — الجحوان :

وذاع أمر الأستاذ « نصر الدين » ، وراجت دعاباته ، ولقى من الحظ مثلما لقى صاحباه : « خرافة » و « جحا » من قبل .

ولما كان لقب أستاذ بالتركية هو لفظ « خوجة » ، حوله النقلة إلى جحا لتقارب اللفظين وتشابه الرجلين ، وقد كدنا نقول : تطابق الشخصيتين .

وما لبث الأستاذ « نصر الدين » أن استأثر — بعد موته — بلقب جحا وكاد يستأثر بكل طرائفه وملحه فلا يبقى له منها شيئاً جل أو حقر .

* * *

وأعلنت بعض المجلات مكافأة لمن يبعث إليها بطريفة مروية عن الأستاذ « نصر الدين » أو « نصر الدين خوجة » أو جحا التركى . فراح الناس ينقبون ويغيرون على نفائس الملح حتى نسبوا إليه جمهرة من الطرائف العربية وغيرها ، فلم ينج من غاراتهم : كتاب كليلة ودمنة فى الشرق ، ولا قصص « بوكاتشو » فى الغرب .

ثم ما لبثت الأمم أن تنازعت كثيراً من القصص الجحوى نصاً ومزيداً وناقصاً ووافياً ، وأميناً ومحرفاً ، ومبتدعاً ومشوهاً ، وأسندته كل أمة إلى جحاها .

فاضل كيلانى

---

(١) لقب ذى الودعات يزيد بن ثروان ، وكان مضرب المثل فى الحمق .

(٢) الفند : الجبل ، وقد سمى به صاحبنا لثقله فى الحاجات . ومن قول على بن أبى طالب للأشتر النخعى : « لو كان جبلا لكان فنداً ، لا يرتقيه الحافر ، ولا يوفى عليه الطائر »

(٣) رجل كوفى كان يأتى الولائم والأعراس من غير أن يدعى إليها .